عيد الأعياد

الأب نجيب ابراهيم الفرنيسيكاني

هكذا كان القدّيس فرنسيس يدعو عيد الميلاد. فيقول توما الشيلاني: «فوق كلّ الإحتفالات الدينية كان فرنسيس يحتفل بعناية خاصة واحتفاء عزّ نظيره بعيد ميلاد الطفل يسوع. كان يقبّل بشغف تلك الأطراف الطفولية في كلّ صورة له، لقد كانت حنايا قلبه تتأجج محبة وتفيض عاطفة في حبّ الطفل يسوع، فتدفعه لأن ينطق بكلمات عذبة كتلك التي تردّدها شفاه الأطفال الأبرياء. لقد كان اسم الطفل يسوع شهيّا لديه أكثر من مذاق العسل المصفّى في الفم» (٢ شيلانو ١٩٩ : ٧٨٧).

كذلك الأمر تدلّ كتابات القدّيس فرنسيس على هذه الحقيقة الروحية. والكتابات هي المصدر الأساسي لفهم روحانية مار فرنسيس.

١ – الميلاد آية حبّ الله

في الفصل الثالث والعشرين من القانون الأول، يرفع القدّيس فرنسيس صلاة شكر إلى الله "من أجل ذاته"، لأنّه خلق الكون بمشيئته القدّوسة وبابنه الحبيب. ويتابع فعل الشكر من أجل الخلاص الذي تمّ بيسوع المسيح. ومن ثمّ يطلب بتواضع من المسيح أن يرفع الشكر إلى الآب مع الروح القدس، لأنّه يشعر بضعفه في هذا العمل العظيم، أي فعل شكر الله.

ويتابع القدّيس صلاته متوسّلاً إلى القدّيسين، وعلى رأسهم مريم العذراء، كي يشكروا الله.

يشكر فرنسيس الله من أجل ذاته ومن أجل أعماله في الخلق والخلاص، التي تمّت بالابن الحبيب. لذلك يُعتبر هذا الفصل من القانون الأول بمثابة صلاة إفخارستيا، أي صلاة شكر. لذلك يقول القدّيس فرنسيس:

«ونشكرك لأنّك، مثلما خلقتنا بابنك، كذلك بحبّك القدّوس الّذي به أحببتنا، جعلته يُولد، إلها حقّا، من الكلّية الطوبى، القدّيسة مريم المجيدة، الدائمة البتولية. وبصليبه ودمه وموته أردت

افتداءَنا، نحن الأسرى. ونشكرك لأنّ ابنك نفسه، سيعود في مجد عظمته» (١ قانون ٢٣ : ٣ – ٤).

يربط القدّيس فرنسيس ميلاد يسوع وموته ومجيئه الثاني بمحبّة الله الأزلية لنا. خلقنا بالإبن لأنّه يحبّنا. وجعله يولد لأنّه يحبّنا. ومن الجديد بالذكر أنّ فرنسيس لا يرى أسرار المسيح منفصلة لأنّه يضع بفعل الشكر الواحد سرّي التجّسد والفداء.

الميلاد ليس مجرّد ذكرى تاريخية بل مناسبة للتعبير عن إيمان الكنيسة فيقول بوضوح إنّ المسيح وُلد وهو إله حقّ وإنسان حقّ. فيتوقّف عند إنسانية المسيح ليقول إنّه وُلد من "الكلّية الطوبى، القدّيسة مريم المجيدة، والدائمة البتولية".

هنا جوهر الإيمان، عندما نحتفل بالميلاد معترفين أنّ يسوع هو عطية حبّ الآب لنا.

٢- أخذ الكلمة جسد إنسانيّتنا

في الرسالة الثانية إلى المؤمنين، يتوّجه فرنسيس إلى جميع المسيحيين لينقل إليهم كلمات ربّنا يسوع المسيح، الذي هو كلمة الآب، وكلمات الروح القدس، التي هي روح وحياة. الرسالة تحثُّ على الإيمان ووتدعو إلى التوبة.

في مطلع الرسالة، يذكر القدّيس فرنسيس سرّ التجسّد بهذه الكلمات:

«إنّ الآب العليّ بشّر من السماء بكلمته هذا، الجزيل الكرامة، والجزيل القداسة والتمجيد، بواسطة ملاكه، القدّيس جبرائيل، في أحشاء القدّيسة المجيدة العذراء مريم، ومن أحشائها أخذ الكلمة جسد إنسانيّتنا، وهشاشتنا الحقيقيّ. فهو الذي كان غنيّاً فوق كلّ شيء، أراد اختيار الفقر لنفسه، في هذا العالم، مع أمّه العذراء الكليّة الطوبى».

أول كلمة يبشّر بها فرنسيس تتعلّق بسرّ التجسّد، مؤكّداً أنّ أصل سرّ الخلاص هذا هو الآب العليّ. ذلك أنّ الملاك ليس سوى مرسل من الله ومندوب منه.

يدعو الإبن "كلمة الآب الجزيل الكرامة والقداسة والتمجيد" معبّراً بذلك ليس فقط عن ألوهية المسيح وحسب، بل عن حقّه في التمجيد والإكرام.

ولكن الصورة لا تكتمل إلا بذكر إنسانية المسيح، التي لا يمكن أن نراها إلا مع مريم العذراء،

إذ منها أخذ إنسانيّتنا. بدون العذراء مريم هناك خطر أن يصبح الدين المسيحيّ مجرّد عقيدة، لذلك لم يكن باستطاعة فرنسيس التكلّم عن إنسانيّة المسيح بدون ذكر أمّه مريم العذراء.

في أصل واقع الكيان المسيحيّ، يقول قداسة البابا مبارك السادس عشر في رسالته العامة "الله محبة"، لا يوجد قرار أخلاقيّ أو فكرة عظيمة، بل اللقاء مع حدث، مع شخص، يعطي الحياة أفقاً جديداً، وبالتالي توجّهاً حاسماً. هذا ما ينطبق على حياة القدّيسين أمثال القدّيس فرنسيس، الذي حوّل الاحتفال بالميلاد إلى لقاء حيّ مع الطفل يسوع.

من الجدير بالذكر أنّ بعض الهراطقة في عصر القدّيس فرنسيس كانوا يعتبرون الجسد والمادة شرّاً. لذلك يعارض بشدّة هذا التعليم ويشدّد على أسرار الإيمان الأساسية بطريقة ملموسة، تنبع من سرّ التجسّد، داعياً إلى اقتفاء آثار الكلمة الذي صار جسداً. وكأنّي بالقدّيس فرنسيس يفسّر بروحانية التجسّد هذه ما يقوله يوحنا الرسول في رسالته الأولى:

«ذاك الذي كان منذ البدء
ذاك الذي سمعناه
ذاك الذي رأيناه بعينينا
ذاك الذي تأمّلناه
ولمسته يدانا
من كلمة الحياة
لأنّ الحياة ظهرت فرأينا ونشهد ونبشّركم بتلك الحياة الأبدية» (١يوحنا ١ : ١ – ٢).

في هذا النصّ، يخبر يوحنا عن الكلمة المتجسّد بطريقة حسّية، إذ إنّه سمعه ورآه ولمسه. هكذا أيضاً القدّيس فرنسيس يتكلّم عن "أقوال الرّبّ العطرة"، داعياً الناس لتناول جسده ودمه بقلب طاهر وجسد عفيف، مما يسمح لهم أن يتذوقوا عذوبة الرّبّ.

في نهاية إعلان الإيمان بسر التجسّد، يتوقّف فرنسيس عند الفقر الذي اختاره الكلمة الغنيّ منذ الأزل، لنفسه في هذا العالم مع أمّه العذراء الكلّية الطوبى. هذا ما أراد فرنسيس أن يراه ويلمسه عندما احتفل بعيد الميلاد في بلدة چريتشو.

٣- ميلاد چريتشو

يروي لنا "توما الشيلاني" كيف احتفل القدّيس فرنسيس بعيد الميلاد في هذه البلدة، سنة ١٢٢٣.وكان قد زار الأماكن المقدّسة حسب بعض المؤرّخين سنة ١٢١٩.لذلك يمكن أن تكون ذكرى بيت لحم قد ساهمت بهذا الاحتفال المميّز بعيد الميلاد.

خمسة عشر يوماً قبل عيد الميلاد، دعا فرنسيس صديقه "يوحنا ڤليتا"، سيّد چريتشو، وقال له: «حضّر ما أقول لك: أريد أن استدعي إلى الأذهان طفل بيت لحم وأن أرى بأمّ العين الصعوبات التي تحمّلها عندما كان ينقصه الكثير من الأشياء الضرورية لمولود جديد، وكيف وُضِع في المذود بين الثور والحمار».

حلّت ليلة الميلاد فجاء فرنسيس وإخوته والشعب حاملين المشاعل والشموع. فوجدوا كلّ شيء معدّاً: المذود والتبن والثور والحمار في مغارة صغيرة بين الأشجار. فاحتفلوا بالذبيحة الإلهية على المذود، يعني أنّه لم يكن هناك تمثال للطفل يسوع.

في هذا الاحتفال بالميلاد، أراد فرنسيس أن يرى فقر ابن الله الذي وُلد في بيت لحم، مع تلك العلاقة السرية بين مذود المغارة ومائدة الإفخارستيا. حتى أنّ الطفل يسوع تراءى "ليوحنا ڤليتا" وكأنّه استيقظ من النوم، قائما بين يدي القدّيس فرنسيس.

الإفخارستيا هي قبل كلّ شيء ذكرى عشاء الرّب وذبيحة الصليب، ولكنّ القدّيس فرنسيس يسلّط الضوء على تقليد آخر في الكنيسة يربط بين التجسّد وسرّ الإفخارستيا.

٤- تواضع ابن الله في الميلاد وفي الإفخارستيا

يقول القدّيس فرنسيس في التوصية الأولى:

«فها هوذا، يتواضع كلّ يوم، مثلما فعل لما أتى من العروش الملكية إلى حشا العذراء. إنّه كلّ يوم يأتي في مظهر وضيع، وكلّ يوم ينحدر من حضن الآب إلى الهيكل بين يدي الكاهن. ومثلما أظهر ذاته للرسل القدّيسين، في جسد حقيقيّ، كذلك الآن يُظهر لنا ذاته في الخبز المقدّس. ومثلما

كانوا هم، بعين الجسد، لا يرون سوى جسده، ولكنّهم، يتأمّلون بعيون الروح، كانوا يؤمنون بأنّه الله. كذلك نحن أيضاً، نرى بعيون الجسد خبزاً وخمراً، ولكننا نرى ونؤمن، إيماناً راسخاً، بأنّهما جسده ودمه الحيّان والحقيقيّان والكلّيا القداسة. وهكذا يبقى الرّبّ دائماً مع مؤمنيه وفقاً لقوله: «ها أنذا معكم حتى انتهاء الدهور».

الإفخارستيا هي تواضع ابن الله، لأنّه يأتي إلى المذبح مثلما نزل في حشا مريم البتول. لذلك يكون مذبح القدّاس مثل مذود بيت لحم، حيث وُضع يسوع ليلة ميلاده.

"بيت لحم"، أي "بيت الخبز". ويسوع هو الخبز الحيّ النازل من السماء ليحيينا. لذلك أراد القدّيس فرنسيس الإحتفال بقدّاس الميلاد في مغارة تمثّل مغارة بيت لحم والمذود.

في الختام

نقول مع القدّيس فرنسيس "الميلاد، عيد الأعياد". ذلك أنّ سرّ التجسّد هو بداية الخلاص وليست باقي أسرار المسيح سوى تتمة لهذا السرّ العظيم.

ساهم القدّيس فرنسيس بروحانية التجسّد. فصارت حياة يسوع حسب الإنجيل أسراراً للتأمّل ومساراً للعبادة. وهذه تبدأ بالميلاد. لذلك انتشر التعبّد للطفل يسوع، حتى أنّ بعضهم يؤكّد أنّ المغارة التي نحضّرها في الكنائس والبيوت مرتبطة بروحانية القدّيس فرنسيس وبما فعله ليلة الميلاد، ثلاث سنوات قبل وفاته، في بلدة جريتشو. أمّا الأهمّ هو الجوهر، أي الإيمان بأنّ يسوع الإنسان هو ابن الله وعلامة حبّه الخلاصية لنا. كما أنّ الإفخارستيا هي الغذاء الروحي الذي يسمح لنا لقاء الطفل الإلهي، عمّانوئيل، الله معنا.

لذلك يدعو فرنسيس كلّ الناس للفرح في هذا اليوم، إذ لا يحقّ لأحد أن يكون حزيناً فيه، فيطلب من المسيحيين أن يكونوا مسؤولين عن فرح الآخرين وعن فرح كلّ الخلائق، كما تقول السيرة:

«صحيح أنّ الرّب صنع الخلاص من أجلنا في سائر الاحتفالات، ولكن يبقى أنّه في الميلاد بدأ التزامه من أجل خلاصنا. وكان القدّيس فرنسيس يريد أن يفرح كلّ مسيحيّ في هذا اليوم وأن يكون كريماً حبّاً بالرّبّ الذي أعطانا ذاته كلّياً، فيحسن بفرح ليس فقط إلى الفقراء والمعوزين، بل حتى إلى الحيوانات ... لقد أراد في مثل هذا اليوم أن يُشبع الأغنياء الفقراء والمتسولين، وأن تنال الثيران والحمير قدراً أكبر من العلف والتبن. وكان يقول: لو كان بوسعي أن أتحدّث إلى الامبراطور لتوسلّت إليه أن يصدر مرسوماً عاماً يأمر فيه كلّ من كان قادراً على ذلك أن يملأ الشوارع حنطة وحبوباً حتى تجد الطيور في يوم عظيم كهذا طعامها بوفرة وخاصة اخوتنا الهداهد» (سيرة بيروجا ١١٠ و٢ شيلانو ١٩٩).